

الإعجاز البياني في كتاب

(البيان والتبيين)

بحث مقدم من قبل الباحثة

م. م. سمية عباس خضير الحيالي

الجامعة العراقية - كلية العلوم الإسلامية

The graphic miracle in a book

(Statement and clarification)

Research submitted by the researcher

M . M . Sumaya Abbas Khudair Al-Hayali

Iraqi University - College of Islamic Sciences

مجلة دراسات العلوم

الإسلامية

الإعجاز البياني في كتاب

(البيان والتبيين)

م. م. سمية عباس خضير الحياي

الجامعة العراقية- كلية العلوم الإسلامية

ملخص:

يهدف هذا البحث على بيان اللمسات البيانية الإعجازية عند الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، إذ هو من المصادر المهمة في هذا الباب ولم يسرح أحد من أهل التفسير واللغة نظره فيه فيخرج لنا مما حواه هذا الكتاب المبارك. واعتدت في بحثي هذا على أمهات الكتب التي عنت بدراسة الأركان الثلاثة عند أهل البيان، وقد جاء على مبحثين، وتحت كل مبحث مطالب، ومفردات وعنوانات تلائم أصل المبحث الذي انطلق فيه بحثه.

Abstract:

This research aims to explain the miraculous graphic touches of Al-Jahiz in his book Al-Bayan wa Al-Tabin, as it is one of the important sources in this section and no one among the scholars of interpretation and language has neglected to look into it, so it comes out for us.

What is included in this blessed book.

In this research, I relied on the most important books that dealt with studying the three pillars according to the people of the Bayan. It consisted of two sections, and under each section there were demands, with vocabulary and titles that fit the origin of the topic that was addressed He started his search.

مجلة دراسات العلوم
الإسلامية

مقدمة البحث:

أما بعد: فإنّ من أسرار البلاغة العربية وذوقها أن تساير الأساليب المختلفة وتتماشى مع المواقف والسياقات حسبما يتطلب المقام اللغوي والنفسي، " والبلاغة الحق - إضافة إلى كونها الكلام المكتوب أو المسموع، هي التي تقدر الظروف والمواقف، وتعطي كل ذي حق حقه، سواء أكانت شعراً أم نثراً، مقالا أم قصة، مسرحية أم حكاية، مديحا أم هجاء، غزلا أم استعطافا"⁽¹⁾.

والحديث عن البلاغة العربية يعيدنا دائما إلى الجاحظ، وتبرز أهمية اختيار الجاحظ وكتابه البيان والتبيين موضوعاً للبحث في أنه لا يُعدّ فقط من كبار المفكرين في التراث العربي، بل إته مصدر اعتمد عليه البلاغيون والتقاد من بعده، وعدّه بعضهم أيضاً مؤسس علم البلاغة، وسيّد الكتّاب، وشيخ أدباء العرب⁽²⁾، لذا حظي تراث الجاحظ باهتمام كبير من الباحثين، فدارت حوله دراسات كثيرة تناولته من جوانب مختلفة، وكثرت هذه الدراسات حتى تصوّر بعضهم أنّ إمكانات الإضافة الجديدة في هذا المجال ضيقة وعسيرة⁽³⁾، إلا أنه في رأيي ما يزال يحتاج إلى مزيد من الدراسات للكشف عن نواح إبداعية أخرى في تراثه البلاغي والنقدي، ف جاءت هذه الدراسة لتبحث في فكرة لم تلق من الباحثين عناية كافية، وهي اهتمام الجاحظ بالمتلقي وكيفية التأثير فيه. وتهدف إلى البحث عن مدى وعي الجاحظ بأهمية العملية التفاعلية بين المنشئ والمتلقي التي تدفع المنشئ إلى البحث عن طرق وأساليب إبداعية لإنتاج نصوص تمتاز بقدرتها على التأثير في المتلقي. ونأمل بدراستنا هذه أن نقدم شيئا جديداً.

إن كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ هو أحد أبرز المصادر التي تناولت موضوع الإعجاز البياني للقرآن الكريم في هذا الكتاب، ناقش الجاحظ عدة جوانب من الإعجاز البياني في القرآن، بما في ذلك فصاحة ألفاظه وبلاغة معانيه وروعة نظمه وأسلوبه المتفرد. الجاحظ درس هذا الموضوع بشكل مفصل، مستعيناً بالمنهج البلاغي والنقدي في تحليل النصوص القرآنية وقد أشار إلى أن الإعجاز البياني للقرآن يتجلى في جوانب متعددة كالاستعارة والأسلوب والبلاغة العربية.

كما تناول الجاحظ في كتابه آراء ومناقشات أخرى حول موضوع الإعجاز البياني، مستفيداً من الثقافة اليونانية وتطبيقها على النص القرآني. ويعد هذا الكتاب مصدراً مهماً لفهم وتحليل جوانب الإعجاز البياني للقرآن الكريم.

وتهدف هذه الدراسة إلى البحث عما لدى الجاحظ من آراء وأفكار تتصل بمسألة التأثير في المتلقي عن طريق ما يعجزه البيان، ومعرفة مدى تفضّل الجاحظ لأنظار نقدية حديثة، ومن المهم أن أتبه إلى أنّ دارس مثل هذه الموضوعات التي تجمع القديم بالحديث عليه أن لا يبالغ في استنتاجاته، وأن لا يحتمل النصوص فوق ما تحتمل، وألا تذهب به حماسه إلى لي أعناقها لتنسجم مع المفاهيم الحديثة التي يتكئ عليها. فالجاحظ عاش في النصف الأخير من القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث الهجريين، ومن الطبيعي أن نجد عنده اختلافات مع النظريات الحديثة يحتملها التطور الذي يلحق الحياة بمختلف جوانبها. فجلّ الجهد في هذه الدراسة انصرف إلى تلمس الاتجاهات العامة لهذه المفاهيم عند الجاحظ، أمّا التفصيلات والجزئيات الدقيقة فمن الصعب أن نجد تطابقاً بينها وبين الجاحظ.

(1) د. بكرى شيخ أمين - البلاغة العربية في ثوبها الجديد - الطبعة الرابعة - دار العلم للملايين - بيروت - 1995 - 15/1.

(2) ينظر السندي، حسن (1931)، أدب الجاحظ، القاهرة: المطبعة الرحمانية، ص 61، وينظر خفاجي، محمد و شرف، عبد العزيز (1991)، التفسير الإعلامي للأدب، بيروت: دار الجيل، ص 77

(3) ينظر بلمليح، إدريس (1984)، الرؤية البيانية عند الجاحظ، ط 1، الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ص 16

ولم نكتف في دراستنا بأفكار الجاحظ النظرية بل قمنا بتحليل بعض كتاباته الأدبية أيضاً؛ بغية التحقق من انسجامه في كليهما، وقد يمكننا تناول مادة الجاحظ النظرية إلى جانب المادة التطبيقية من معرفة ما إذا كانت أفكاره التي أوردها حول التأثير في المتلقي منظّمة ومتألّفة وتستحق أن تسمى نظرية أم لا.

وكثير هم من درسوا الجاحظ بوصفه عالماً بالبلاغة وناقداً للأدب، وتناولوا حديثه عن مسائل الإيجاز والإطناب والإشارة وغيرها. وقد وردت في كتبهم ملاحظات - على قلتها وإيجازها - تمسّ هذه الدراسة مسأً رقيقاً، منها: اهتمام الجاحظ بطبقات المخاطبين، ودور الإشارة المهم في أداء المعاني، وحسن الابتداء والانتهاء، وحديثه عن عيوب النطق.

غير أنّ أهمّ تلك الدراسات ما جاء به العمري في كتابه "البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها" في الفصل الذي خصّصه لبيان الجاحظ⁽¹⁾، حيث يرى أنّ وظيفة البيان عند الجاحظ هي الإقناع الذي يعتمد على عنصرَي الاستمالة والاحتجاج، وذهب العمري إلى أبعد من هذا فهو يرى أنّ الجاحظ اعتنى بشكل خاص بالوظيفة التأثيرية للبيان التي تعتمد على استمالة المتلقي من الناحية العاطفية⁽²⁾، وقد وردت ملاحظات العمري هذه في فصل صغير من كتاب لم يُخصّص للجاحظ بل خصّص للبلاغة العربية عامة، فكانت على أهميتها ملاحظات قليلة لم يُفصّل القول فيها.

وإن كان بعض الباحثين قد تناول تراث الجاحظ بالدراسة والتحليل وتوصّلوا إلى بعض ما سنتوصّل إليه، فنحن في دراستنا هذه نؤكد نتائجهم اعتماداً على ما أتاحه لنا علم البرمجة اللغوية العصبية من مباحث، فالتأثير في الآخرين أصبح علماً إلى جانب كونه فناً.

أمّا منهج البحث: وجاء بحث هذا على مبحثين، وخاتمة، وقائمة بالمصادر والمراجع:

المبحث الأول: التعريف بمفهوم الإعجاز، وشروطه، وأنواعه، والدراسات السابقة: وهو على أربعة مطالب:

المطلب الأول: الإعجاز في اللغة:

المطلب الثاني: شروط المعجزة:

المطلب الثالث: أنواع الإعجاز:

المطلب الرابع: الجهود السابقة:

المبحث الثاني: التواصل اللفظي عند الجاحظ: وهو على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التعريف بالتواصل:

المطلب الثاني: نظرة على الاتصال البياني عند الجاحظ في البيان والتبيين:

المطلب الثالث: عناصر الموقف الاتصالي البياني عند الجاحظ:

وأما الخاتمة فقد تضمنت أهم توصلت إليه ثم أتبعها بالمصادر والمرجع التي قد اعتمدت عليها.

هذا وأسأل الله التيسير والقبول، وما توفيقني إلا بالله.

(1) ينظر العمري، محمد (1999)، البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، الدار البيضاء: مطبعة إفريقيا الشرق، ص 189-216

(2) ينظر العمري، البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، ص 213. وينظر الفصل الثالث من هذه الدراسة

المبحث الأول: التعريف بمفهوم الإعجاز، وشروطه، وأنواعه، والدراسات السابقة:

المطلب الأول: الإعجاز في اللغة:

أولاً: الإعجاز لغة: العين والجيم والزاء أصلان صحيحان، يدلُّ أحدهما على الضَّعف والآخر على مؤخَّر الشيء. فالأول عَجَزَ عن الشيء يعجز عَجْزاً، فهو عاجزٌ، أي: ضَعيف. وقولهم: إنَّ العَجْرَ نقيضُ الحَزْمِ فمن هذا ؛ لأنه يَضْعُفُ رأْيُه. ويقولون: (المرء يَعْجِزُ لا تَحَالَةً). ويقال: أعجِزني فلانٌ، إذا عَجِزْتَ عن طلبه وإدراكه. ولن يُعجزَ اللهُ تعالى شيء، أي: لا يَعجزُ اللهُ تعالى عنه متى شاء. والعَجْزُ: نقيضُ الحَزْمِ، وعَجَزَ عن الأمر يَعْجِزُ وعَجِزَ عَجْزاً وفيهما ؛ ورجل عَجِزٌ وعَجِزٌ: عاجِزٌ. وامرأةٌ عاجِزَةٌ: عاجِزَةٌ عن الشيء وعَجِزَتْ فلانٌ رأْيَ فلان، إذا نسبه إلى خلاف الحَزْمِ، كأنه نسبه إلى العَجْزِ. ويقال: أَعَجِزْتُ فلاناً إذا أَلْقَيْتَهُ عاجِزاً. والمعْجِزَةُ العَجْزُ⁽¹⁾.

والمعجزة: مشتقة من الإعجاز، وهي اسم فاعل له ولحققتها تاء التأنيث بعد نقلها من الوصفية للاسمية⁽²⁾.

ثانياً: الإعجاز في الاصطلاح: أمر خارق للعادة، داعٍ إلى الخير والسعادة، مقرون بدعوى النبوة قصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول من الله⁽³⁾.

وقال القاضي عبد الجبار: "معنى قولنا في القرآن أنه معجز: أن يتعذر على المتقدمين في الفصاحة فعل مثله في القدر الذي اختص به"⁽⁴⁾.

وقال الداوي: "هي الأمر الخارق للعادة، السالم من المعارضة يظهره الله تعالى على يد نبي، تصديقاً له في دعوى النبوة"⁽⁵⁾.

والإعجاز في الكلام: هو تأديته بطريق أبلغ من كل ما عداه من الطرق⁽⁶⁾.

وتوضيح ذلك أن الإعجاز في شيئين، هما:

1. ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة، ومزاولته على شدة الإنسان واتصال عنايته.
2. ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه، فكأنَّ العالم كله في العجز إنساناً واحداً، ليس له غير مدنه المحدودة بالغة ما بلغت⁽⁷⁾.

(1) مُعْجَم مَقَائِيس اللُّغَةِ، 232/2، لِسَان العَرَبِ: 373/5 ؛ وَالْقَامُوسُ المُحِيط: 664 /2. مُعْجَم مَقَائِيس اللُّغَةِ: 232/2.

(2) يُنْظَرُ: حَاشِيَةِ العَلَامَةِ أَحْمَدُ بنِ مُحَمَّدِ الصَّوَّي المَالِكِي الخُلَوِّي، (ت 1241هـ) عَلَى شَرْحِ الحَرِيدَةِ البَهِيمَةِ، لِأَبِي البَرَكَاتِ أَحْمَدُ بنِ مُحَمَّدِ بنِ أَحْمَدِ

الدَّرْدِيرِ العَدَوِيِّ المَالِكِي، (ت 1201هـ)، مَطْبَعَةُ الاستِقَامَةِ، القَاهِرَةِ، بِلَا تَارِيخٍ: 97.

(3) التَّعْرِيفَات. لِأَبِي الحَسَنِ عَلِي بن مُحَمَّدِ بنِ عَلِي الجَرَجَانِي المَعْرُوفِ بِالسَّيِّدِ الشَّرِيفِ. (ت 816هـ). تَحْقِيقٌ: إِبْرَاهِيمِ الأَبْيَارِيِّ. الطَّبَعَةُ الأُولَى. دَار

الكِتَابِ العَرَبِيِّ. بَيْرُوت. 1405هـ: 282.

(4) المُعْنَى فِي أَبْوَابِ العَدْلِ وَالتَّوْحِيدِ. لِلْقَاضِي أَبِي الحَسَنِ عَبْدِ الجَبَارِ الأَسَدِ آبَادِي المَعْتَزَلِيِّ، (ت 415 هـ)، حَرَر نَصَهُ: أَمِينُ الخَوْلِيِّ، أَشْرَفَ عَلَيَّ

إِحْيَائِهِ: طه حسين، وَزَارَةَ الثَّقَافَةِ وَالإِرشَادِ القَوْمِي، المَوْسُوسَةُ المِصْرِيَّةُ العَامَّةُ لِلكِتَابِ، الطَّبَعَةُ الأُولَى، القَاهِرَةِ، بِلَا تَارِيخٍ: 226/16.

(5) شَرْحُ جَلَالِ الدِّينِ الدَّوَّانِي عَلَيَّ العُقَاةِ العَضْدِيَّةِ. الطَّبَعَةُ الأُولَى. دَارُ الطَّبَاعَةِ العَامَةِ. 1317هـ: 276/2.

(6) التَّوْقِيفُ عَلَيَّ مَهْمَاتِ التَّعَارِيفِ. لِ مُحَمَّدِ عَبْدِ الرُّوْفِ المَنَاوِيِّ. (ت 1031هـ). تَحْقِيقٌ: د. مُحَمَّدُ رِضْوَانِ الدَّايَةِ. الطَّبَعَةُ الأُولَى. دَارُ الفِكْرِ المَعَاوِرِ.

دِمَشق، وَدَارُ الفِكْرِ لِلطَّبَاعَةِ وَالنَشْرِ. بَيْرُوت. 1410هـ: 75.

(7) يُنْظَرُ: إِعْجَازُ القُرْآنِ وَالبَلَاغَةُ النَبَوِيَّةُ، لِصَلْفِيِّ صَادِقِ الرَّافِعِيِّ. ضَبَطَهُ وَصَحَّحَهُ وَحَقَّقَ أُصُولَهُ: مُحَمَّدُ سَعِيدِ العَرِيَانِ. الطَّبَعَةُ الرَّابِعَةُ. مَطْبَعَةُ

الاستقامة. 1359 هـ. 1940م: 139.

وهذه التعريفات متقاربة في مدلولاتها، تشير جميعها إلى أن المعجزة أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى به صدق أنبيائه ورسوله - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ -

المطلب الثاني: شروط المعجزة:

1. أن تكون فعلاً من الأفعال المخالفة لما تعود عليه الناس وألفوه.
2. أن يظهره الله تعالى على يد من يدعي النبوة.
3. أن يكون الغرض من ظهور هذا الفعل الخارق هو تحدي المنكرين، سواء صرح النبي صاحب المعجزة بالتحدي أو كان التحدي مفهوماً من قرائن الأحوال.
4. أن تجيء المعجزة موافقة ومصدقة لدعوى النبوة، فإذا حدثت المعجزة وكذبت النبي في دعواه فلا يكون النبي صادقاً، كما لو نطق الجماد مثلاً بتكذيب صاحب المعجزة.
5. أن يعجز المنكرون عن الإتيان بمعجزة مماثلة لمعجزة النبي، أي يعجزون عن معارضته⁽¹⁾.

وإذا كان هذا معنى الإعجاز، فبإضافته إلى القرآن، ومنهما يكون مصطلح: (إعجاز القرآن) يكون المراد: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، وهو أن يأتيوا بمثله أو بشيء من مثله، فهو من إضافة المصدر إلى فاعله، والمفعول محذوف للدلالة على عموم من تحداهم القرآن، وهم الإنس والجن، وكذلك ما تعلق به الفعل محذوف للعلم به، وهو القرآن أو بعضه كما ثبت في كثير من آيات التحدي.

ويكتمل بيان المراد بهذا المصطلح إذا عرفنا أن إعجاز القرآن من تحداهم عن الإتيان بمثله أو بشيء من مثله ليس أمراً مقصوداً لذاته، وليس هو الغاية في نفسه، ولكن المقصود هو اللزم الناتج عن هذا الإعجاز، وهو إظهار وإثبات أن هذا الكتاب حق، ووحى من عند الله تعالى ومقتضى ذلك كله إثبات صدق الرسول . صلى الله عليه وسلم . فيما جاء به قومه من الرسالة، ودعاهم إليه من الإسلام، وعليه فإن حقيقة الإعجاز وهي إثبات العجز لمن وقع عليه التحدي استلزم إظهار هذا العجز، وهذا الإظهار بدوره استلزم إظهار صدق رسول الله . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وهو المقصود الأول من الإعجاز.

المطلب الثالث: أنواع الإعجاز:

1. الإعجاز اللغوي وينقسم على: الإعجاز البياني والإعجاز بالنظم والإعجاز الصوتي وحسن تأليفه والتثام كلمه وفصاحتها.
2. الإعجاز الغيبي وينقسم على ثلاثة أقسام على حسب عصر النبوة: غيب الماضي، وغيب الحاضر . أي عصر النبوة . وغيب المستقبل
3. الإعجاز التشريعي.
4. الإعجاز العلمي وينقسم على ثلاثة أقسام: الإعجاز الكوني، والإعجاز الطبي، والإعجاز العددي.

المطلب الرابع: الجهود السابقة:

إن أول كتاب وضع في الإعجاز كان للمحافظ (نظم القرآن). ومع أن هذا الكتاب لم يصل إلينا، ولكن المحافظ على طريقته في الإشارة إلى بعض كتبه في بعضها الآخر، أورد بعض الفقرات من هذا الكتاب في كتابيه: (الحيوان)، و(البيان والتبيين) ويتلخص رأي المحافظ في تبنيه للقول بالصرافة إلى جانب إيمانه بأن العرب عجزوا عجزاً حقيقياً . مع محاولتهم . عن الإتيان بمثل القرآن

(1) بحوث في الثقافة الإسلامية. تأليف عدد من أساتذة جامعة قطر: 275.

بسبب طريقة نظم القرآن، أي: أسلوبه، ويعد كتاب الجاحظ المفقود هذا أول كتاب في إعجاز القرآن كما يقول الباقلاني، وأشار إليه الراجعي وقال: "إنه سبق به عبد القاهر الجرجاني"⁽¹⁾

ثم برز ابن قتيبة تلميذ الجاحظ، فندب نفسه للبحث عن الإعجاز القرآني أنه معجزة كبرى لنبينا مُحَمَّد . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . نسخت سالفة الكتب السماوية، وما اتصفت به العربية من خصائص أهلتها للإفصاح عن الإعجاز القرآني⁽²⁾.

وفي القرن الرابع كتب الرماني رسالة في إعجاز القرآن، ذكر أنها تعدّ المرحلة الثالثة . بعد الجاحظ والواسطي⁽³⁾ من مراحل القول بأن الإعجاز أسلوب بياني. وقد أشار ابن سنان الخفاجي في (سر الفصاحة)⁽⁴⁾ والسيوطي في (الإتقان)⁽⁵⁾ إلى رسالة الرماني هذه. وهي تتميز بأنها نقلت مباحث الإعجاز خطوة إلى الأمام بتلخيص الرماني لكل ما قيل قبله من آراء في رسالته هذه⁽⁶⁾.

ومن ساروا على هذا الطريق أيضاً الخطابي، في كتاب له عن إعجاز القرآن من جهة بلاغته، وقد اجتهد في تفصيل وجوه الإعجاز من جهة البلاغة، وخرج به عن دائرة النظم إلى دوائر أخرى من المعاني كالإخبار بما يحدث في المستقبل، وبهذا يكون البحث في الإعجاز قد بدأ ينتقل إلى طور جديد⁽⁷⁾.

وابتداء من القرن الخامس الهجري، ومع اتساع مجالات علم الكلام، وتفشّي بعض مظاهر الزندقة والإلحاد؛ بدأت البحوث في الإعجاز القرآني تتخذ مسارات أكثر تطوراً، وساعد على هذا التطور ازدهار المشهود الذي اتسمت به البحوث اللغوية والفنون الأدبية، ويُعدّ كتاب الباقلاني من أفضل نتاج هذا القرن في مجال الإعجاز، إلى جانب إنجازات عبد القاهر الجرجاني⁽⁸⁾ الذي وضع

(1) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: 27.

(2) يُنظر: تأويل مشكل القرآن، لأبي مُحَمَّد عَبْدَ اللَّهِ بن مسلم المعروف بابن قُتَيْبَةَ، (ت 276)، تحقيق: أَحْمَد صقر، المكتبة العلمية، الطبعة الثالثة، المدينة المنورة، 1981م: 10.

(3) هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن زيد بن علي بن الحسين الواسطي العالم الفاضل المحقق المفسر، صنف كتاباً أسماه (إعجاز القرآن)، وتوفي سنة ست وسبعمئة، وشرحه الشيخ عبد القادر بن عبد الله الشهير بالجيزي الشافعي شرحين كبيرين سماه المعتضد وصغير سماه المقتصد. يُنظر: طبقات المفسرين، لأحمد بن مُحَمَّد الأندروي، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الأولى، المدينة المنورة، 1997م: 262/1؛ أسماء الكتب، لعبد اللطيف بن مُحَمَّد رياض زادة، ألفه في أوائل رمضان سنة (1054 هـ)، دار المعرفة، بلا تاريخ: 15.

(4) يُنظر: سر الفصاحة، لأبي مُحَمَّد عَبْدَ اللَّهِ بن مُحَمَّد بن سعيد بن سنان الخفاجي، (ت 466 هـ)، شرح وتصحيح: عبد المتعال الصعيدي، دار الكتب، القاهرة، 1969م: 13.

(5) يُنظر: الإتقان في علوم القرآن، لأبي الفضل عَبْدَ الرَّحْمَنِ بن أَبِي بَكْرٍ بن مُحَمَّد السيوطي (ت 911 هـ)، بجامشه إعجاز القرآن للباقلاني، الطبعة الثالثة، شركة مكتبة مصطفى الباي الحلبي وأولاده، مصر، 1951م: 326/2.

(6) يُنظر: النكت في إعجاز القرآن، لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني، (ت 384 هـ) (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ: 75.

(7) يُنظر: بيان إعجاز القرآن للخطابي، نشر كتاب خطابي ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني (ت 384 هـ)، والخطابي (ت 388 هـ)، وعبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي، حققها وعلق عليها: مُحَمَّد خلف الله ومُحَمَّد زغلول سَلام، دار المعارف مصر، 1968م، وينظر ابيان في إعجاز القرآن؛ لأبي سليمان مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن إبراهيم الخطّابي البستي، (388 هـ)، تحقيق: د. عبد العليم، القاهرة، 1372 هـ. 1953م: 21.

(8) يُنظر كتابه: أسرار البلاغة، للإمام أبي بكر عَبْدَ اللَّهِ بن مُحَمَّد الجرجاني، (ت 471 هـ)، تحقيق: د. ريتز، استانبول، مطبعة وزارة المعارف، 1954م.

نظرية النظم وضعاً متكاملًا، وإليها يرجع الفضل في تطور علوم البلاغة بعد ذلك، بل يمكن القول إنَّ ما جاءت به بعض المدارس اللغوية المعاصرة التي اهتمت بالأسلوب والتحليل البنائي للتراكيب اللغوية لم تضيف كثيرًا إلى ما نادى به عبد القاهر. أما كتاب الباقلاني فهو المنوال الذي نسج عليه المؤلفون في الإعجاز بعد عصر الباقلاني، وفيه ناقش مسألة في غاية الأهمية، وهي أنَّ القرآن لم يجيء معجزاً للكفار في عصر النبي . صلى الله عليه وسلم . فقط ؛ بل إنَّ إعجازه يشمل كل العصور الآتية، والدليل على ذلك . في رأيه . أنَّ أسلوب القرآن سيظل أرقى من كل الأساليب مهما تطورت. كما فرَّق الباقلاني بين إعجاز القرآن وإعجاز غيره من الكتب السماوية، فأوضح أنَّ إعجاز تلك الكتب مقصور على الإخبار بالغيب فقط، والقرآن إعجازه متعدد الجوانب⁽¹⁾.

أما عبد القاهر فقد بنى نظريته في النظم على أساس لغوي نحوي بحت، فهو في كتابه: (دلائل الإعجاز) يوضح جوانب نظريته تلك توضيحاً كافياً ويرد على مخالفيها. وملخص ما ذهب إليه أنَّ البلاغة التقليدية تقوم على حسن اختيار الألفاظ، فيتقوى المعنى بما يبذله المنشئ للأدب من جهد في التقدم والتأخير والاستعارة. أما القرآن فإنه يقوم بالأساس على فكرة أداء المعنى المراد بصورة جمالية مؤثرة في النفس من العلاقات اللغوية صوتياً بين الحروف، ونحوياً بين الكلمات، وصرافياً باختيار بناء صرفي محدد، وهذه العلاقات الثلاث تسهم في وضعية الدلالة وتأثيرها⁽²⁾.

وهكذا بدأت بحوث الإعجاز تتميز من بحوث البلاغة وعلم الكلام وفتح عبد القاهر والباقلاني باب تلك البحوث لمن جاء بعدهما.

وما تجدر الإشارة إليه أن من تناول الإعجاز بالبحث عدد كبير من العلماء، وسأكتفي بالإشارة إلى أبرزهم. ففي القرن التالي لهما، وهو القرن السادس، ظهر الاهتمام بالبحث في الإعجاز يتسع ليشمل متكلمين مثل حجة الإسلام أبي حامد الغزالي⁽³⁾، والقاضي عياض⁽⁴⁾. ومفسرين مثل الزمخشري⁽⁵⁾، وابن عطية⁽⁶⁾. وفي القرن السابع برز الإمام فخر الدين الرازي، الذي أخذ تفسيره طابعاً خاصاً بالرد على فرق كثيرة من المتكلمين والزنادقة⁽⁷⁾.

- (1) يُنظَرُ: الإعجاز القرآني نظرة تاريخية، للدكتور مصطفى رجب، مجلة المنهل، العدد 491، أكتوبر 1991م: 38.
- (2) دلائل الإعجاز، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، (ت 471 هـ)، تحقيق: د. محمد التنجحي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1995م: 62.
- (3) يُنظَرُ: جواهر القرآن، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، (ت 505 هـ)، تحقيق: د. محمد رشيد رضا القباني، دار إحياء العلوم، الطبعة الأولى، بيروت، 1985م: 47 وإحياء علوم الدين، شركة مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، الطبعة الأولى مصر، 1939م: 220/1.
- (4) يُنظَرُ: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، (ت 544 هـ)، مذيلاً بالحاشية المسماة: منزل الخفاء عن ألفاظ الشفاء للعلامة أحمد بن محمد بن محمد الشمي، (ت 873 هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، بلا تاريخ: 491/1 و511 و522.
- (5) يُنظَرُ: الكشاف: 295/4.
- (6) يُنظَرُ: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المعروف ب(تفسير ابن عطية)، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الغرناطي الأندلسي، (ت 541 هـ)، تحقيق: عبد الله ابن إبراهيم الأنصاري، والسيد عبد العال السيد إبراهيم، مؤسسة دار العلوم، الطبعة الأولى، الدوحة، 1404 هـ. 1984م: 278/2.
- (7) يُنظَرُ: مفاتيح العيب المعروف ب(التفسير الكبير)، وب(تفسير الرازي)، لأبي عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الأصل الشافعي المذهب الرازي، (ت 606 هـ)، الطبعة الثالثة، المطبعة البهية المصرية، ميدان الأزهر، مصر، بلا تاريخ: 22/14 ؛ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، لمحمد فخر الدين بن عمر الرازي، (ت 606 هـ)، القاهرة، 1317 هـ: 12.

وبرز السكاكي البلاغي في كتابه (مفتاح العلوم) ⁽¹⁾ الذي يعدّه كثير من الباحثين خاتمة كتب البلاغة القديمة في صورتها الإبداعية، ويعدّون مؤلفات البلاغة بعد السكاكي مجرد شروح وحواش وتلخيصات واجترار لما قاله السابقون ⁽²⁾. كما نجد اهتماماً بالبحث في الإعجاز في هذا القرن أيضاً عند الآمدي ⁽³⁾، وحازم القرطاجني ⁽⁴⁾، ثم البيضاوي ⁽⁵⁾، والزملكاني ⁽⁶⁾ ويحيى بن حمزة العلوي ⁽⁷⁾. ومنهم علم الدين السخاوي الذي لم أر أحداً من العلماء أشار إلى جهوده القيمة في الإعجاز ولا سيما أنه تناول بتفصيل الإعجاز القرآني ⁽⁸⁾. وفي القرن الثامن نجد آراء قيمة للخطيب القزويني ⁽⁹⁾. ولا بن قيم الجوزية ⁽¹⁰⁾. وتتابعت الكتابات في الإعجاز القرآني بعد ذلك، إذ نجد في القرن التاسع آراء لابن خلدون ⁽¹¹⁾ والفيروز آبادي ⁽¹²⁾ والمراكشي ⁽¹³⁾.

- (1) يُنظَرُ: مفتاح العلوم، لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكرٍ مُحَمَّد بن علي السكاكي، (ت 626هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، الطبعة الأولى، مصر، 1937م: 77.
- (2) يُنظَرُ: مُختَصَرُ المعاني، لسعد الدين التفتازاني (ت 793 هـ)، مؤسسة دار الفكر، قم إيران، بلا تاريخ: 5.
- (3) يُنظَرُ: الإحكام في أصول الأحكام. لأبي الحسن علي بن مُحَمَّد الآمدي، (ت 631 هـ)، تحقيق: د. سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، بيروت، 1404هـ: 130-124/1.
- (4) يُنظَرُ: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لأبي الحسن حازم القرطاجني، (ت 684هـ)، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجه، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م: 185.
- (5) يُنظَرُ: أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بـ(تفسير البيضاوي)، لأبي سعيد ناصر الدين عبد الله بن عمر بن مُحَمَّد الشيرازي البيضاوي الشافعي، (ت 685هـ)، دار صادر، بيروت بلا تاريخ: 204/5.
- (6) يُنظَرُ: التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن، لعبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني، (ت 651 هـ)، تحقيق: الدكتور أحمد مطلوب، والدكتورة خديجة الحديثي مطبعة العاني، بغداد، 1383هـ. 1964: 32؛ والبرهان الكاشف عن إعجاز القرآن لعبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني، (ت 651 هـ)، تحقيق: الدكتور أحمد مطلوب، والدكتورة خديجة الحديثي، بغداد، 1394 هـ. 1974م: 17.
- (7) يُنظَرُ: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة بن علي العلوي اليمني، (ت 669 هـ)، مطبعة المقتطف، مصر، 1332 هـ. 1914م: 33.
- (8) يُنظَرُ: جمال الثراء وكمال الإقراء، لعلي بن مُحَمَّد علم الدين السخاوي، (ت 643 هـ) تحقيق: علي حسين البواب، مكتبة التراث، مكة المكرمة، 1408 هـ. 1987م: وقد كرس كتاباً أسماه الإفصاح لموجز في إيضاح المعجز تناول فيه إعجاز القرآن: ص 43.
- (9) يُنظَرُ: الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبدع على مختصر تلخيص المفتاح، لأبي عبد الله جلال الدين بن سعد الدين أبي مُحَمَّد بن عبد الرحمن الخطيب القزويني، (ت 739هـ)، الطبعة الرابعة، دار إحياء العلوم، بيروت، 1998م.
- (10) يُنظَرُ: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، لأبي عبد الله مُحَمَّد بن أبي بكرٍ أيوب الزرعي المعروف بـ(ابن قيم الجوزية)، (ت 751هـ)، نشر مُحَمَّد أمين الخانجي وشركاه، مصر والأستانة، 1927م: 14.
- (11) مقدمة ابن خلدون، لعبد الرحمن بن مُحَمَّد بن خلدون الحضرمي، (ت 808هـ)، دار القلم، الطبعة الخامسة، بيروت، 1984م: 552.
- (12) يُنظَرُ: بصائر ذوي التمييز، لأبي الطاهر مجد الدين مُحَمَّد بن يعقوب الفيروزآبادي الصديقي الشيرازي، (ت 817هـ)، تحقيق: مُحَمَّد علي النجار، القاهرة، 1964هـ. 1969م: 15-12/1.
- (13) المصباح في اختصار المفتاح للسكاكي، لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المراكشي الضرير، (ت 807هـ)،

وفي القرن العاشر يظهر السيوطي بكتابه: (الإتقان في علوم القرآن)⁽¹⁾، و (معترك الأقران في إعجاز القرآن)⁽²⁾، وكتابه الثاني جامع ومفيد يقع في ثلاثة مجلدات، وهو في رأي بعض الباحثين أثمن كثيراً من الإتقان وأمثله، ويغفل عنه كثير من الباحثين على الرغم من قيمته العظيمة، وقد رتبته الإمام السيوطي على خمسة وثلاثين وجهاً من وجوه الإعجاز، ويقدم لكل وجه بمن ألف فيه قبله، وهو يُعدُّ سجلاً للمؤلفين والكتّاب في هذا الفن⁽³⁾.

كما نجد في هذا القرن أيضاً تفسير أبي السعود⁽⁴⁾.

وفي القرن الحادي عشر برز الشهاب الخفاجي⁽⁵⁾.

وفي القرن الثاني عشر برز أحمد الكواكبي مفتي الحنفية بحلب (ت 1124هـ) و شمس الدين مُحَمَّد الضير المالكى (ت 1149هـ)⁽⁶⁾

وفي القرن الثالث عشر يتميّز الإمام الشوكاني بتفسيره⁽⁷⁾ وكذا الألوسي⁽⁸⁾. وقد تحدث كل منهما في ثنايا تفسيره عن البلاغة القرآنية وجوانبها المختلفة.

ومن الكتب الجيدة أيضاً في أواخر النصف الأول من القرن العشرين التي تناولت الإعجاز بتفصيل دقيق (مناهل العرفان) إذ عرّف مؤلفه إعجاز القرآن بقوله: " أصل الإعجاز في اللغة: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول وما تعلق بالفعل محذوف للعلم به.

والتقدير: إعجاز القرآن خلق الله تعالى عن الإتيان بما تحداهم به ولكن التعجيز المذكور ليس مقصوداً لذاته، بل المقصود لازمه وهو إظهار أنّ هذا الكتاب حق، وأنّ الرسول الذي جاء به رسول صدق، وكذلك الشأن في كل معجزات الأنبياء، ليس المقصود بما تعجيز الخلق لذات التعجيز، ولكن لازمه وهو دلالتها على أنهم صادقون فيما يبلغون عن الله تعالى، فينتقل الناس من الشعور بعجزهم إزاء المعجزات، إلى شعورهم وإيمانهم بأنها صادرة عن الإله القادر، لحكمة عالية، وهي إرشادهم إلى تصديق من جاء بما ليسعدوا باتباعه في الدنيا والآخرة⁽⁹⁾.

(1) يُنظَرُ: 326/2.

(2) ضبطه وصححه وكتبه فهارسه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1408 هـ. 1988م: 1/ 12.5.

(3) ينظر: دراسات حول القرآن الكريم، للدكتور إسماعيل أحمد الطحان، دار القلم، بيروت، 2001م: 97.

(4) يُنظَرُ: إرشاد العُقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم. لأبي السعود مُحَمَّد بن مُحَمَّد العمادي (ت 982هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ: 29/1.

(5) يُنظَرُ: عناية القاضي وكفاية الرازي، حاشية الشَّهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، لشهاب الدين أحمد بن مُحَمَّد بن عَمَر الخفاجي، (ت 1069هـ)، مطبعة بولاق، مصر 1283هـ: 49/1.

(6) يُنظَرُ: فكرة إعجاز القرآن، لنعيم الحمصي، تقدم الدكتور مُحَمَّد بحجة البيطار، مطبعة الترفي، دمشق، 1374هـ. 1955م: 183-189.

(7) يُنظَرُ: فَتْح القَادِرِ الجَامِعِ بين فني الرواية والدَّرَايَةِ من علم التَّفْسِيرِ، لمُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد الشوكاني، (ت 1250هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، بلا تاريخ: 69/1.

(8) يُنظَرُ: رُوح المَعَانِي فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ وَالسَّعِ الْمَثَانِي، لأبي النَّسَاء شهاب الدين السيد محمود بن عَبْد اللَّهِ الألويسي البغدادي، (1270هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ: 256/30.

(9) مناهل العرفان: 331/2.

المبحث الثاني: التواصل اللفظي عند الجاحظ:

لا يمكن تصور حياة بلا لغة، ولا لغة من غير تواصل. فالتواصل "شكل وجودي أساسي للإنسان، يرتبط من خلاله بالأشياء، وينشئ معاني، وينسج قيماً ومعايير للحكم على تلك الأشياء ويصنع صوراً عن الآخرين وعن نفسه"⁽¹⁾ وحياة اللغة مقترنة بعملية التواصل والتداول.

المطلب الأول: التعريف بالتواصل:

الاتصال لغة. يفيد الاتصال في اللغة العربية معاني عدة، أبرزها: الاقتران والتواصل والصلة والترابط والالتزام والجمع والإبلاغ والانتهاة والإعلام. ففي لسان العرب "واتصل الشيء بالشيء: لم ينقطع.. ووصل الشيء إلى الشيء وصولاً وتوصل إليه: انتهى إليه وبلغه.. والوصل: ضد المجران، والتواصل: ضد التصارم"⁽²⁾

أما المفهوم الاصطلاحي للاتصال، فهناك تعريفات كثيرة، تكاد تتباعد في نواحٍ وتتقارب في أخرى. فدائرة المعارف البريطانية تعرّف الاتصال بأنه تبادل المعاني بين الأفراد من خلال نظام عام للرموز. وتصنف تعريف ريتشاردز - الناقد البريطاني المشهور - للاتصال، والذي قدمه عام (1928) من أوائل التعريفات للاتصال، ومن أفضلها في بعض الوجوه. يقول ريتشاردز: إن

الاتصال يتم عندما يؤثر عقل ما (مرسل) من خلال بيئة معينة في عقل آخر (مستقبل)، وفي هذا العقل الآخر تحدث خبرة معينة تشبه الخبرة التي كانت في العقل الأول⁽³⁾.

المطلب الثاني: نظرة على الاتصال البياني عند الجاحظ في البيان والتبيين:

كتاب "البيان والتبيين" وإن عدّه الدارسون كتاباً في البيان والبلاغة، إلا أنّ مفاهيم البيان عند الجاحظ كانت تدور حول مسائل فن القول والعمل الأدبي بعامة، وهو في جوهره رسالة لغوية موجهة من المبدع إلى المتلقي تتمثل فيها محاور البيان، وهي:

- ماذا تقول؟ وهو النص اللغوي أو (الرسالة) بنسائيتها الشكل والمضمون التي تقوم عليها.
- من القائل؟ وماذا يجب عليه؟ وذلك ما يتعلق ب(المرسل) ومهاراته البيانية.
- لمن تقول؟ وذلك (المتلقي) أو الشريحة المستهدفة، فرداً كان أو جماعة.
- متى تقول وأين؟ السياق المحيط بالمستمع والمتكلم، وتعلق بمطابقة الكلام لمقتضى الحال أو بالمناسبة بين المقال والمقام - كما يعبر عنه البلاغيون -.

- كيف تقول؟ وهي الشفرة المستعملة، والتي تتعلق بالقدرة اللغوية على التعبير وبالصوت، وبالاستراتيجيات اللغوية. وقد وزع الجاحظ نظريته على هذه العناصر بشكل يلفت النظر ويدعو للإعجاب، فركز على الرسالة ومقوماتها الداخلية والخارجية، وعلى العلاقة بين المرسل ورسالته، ثم المتلقي بوصفه طرفاً أساسياً في فاعلية الرسالة، بما يتفق ومقتضى حاله ومقامه. كما أشار إلى الرابط بين أطراف عملية الاتصال من خلال عدة وظائف؛ كالوظيفة الإفهامية، والوظيفة الخطابية، والوظيفة الشعرية.

(1) التواصل: المفاهيم والقنوات، لبناصر البعزاتي، 12، ضمن كتاب المفاهيم وأشكال التواصل: تنسيق محمد مفتاح وأحمد بوحسن، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 92، كلية الآداب الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2001.

(2) ينظر: لسان العرب مادة وصل (726/11) دار صادر - بيروت.

(3) تعلم اللغة اتصالياً بين المناهج والاستراتيجيات: د/رشدي أحمد طعيمة، د/محمود كامل الناقة مفهوم اللغة ووظائفها: رشدي أحمد طعيمة؛ محمود كامل الناقة، ص: 12. المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

وسنكشف عن براعة الجاحظ في هذا المجال من خلال محورين:

الأول: عناصر الاتصال البياني عند الجاحظ.

الثاني: الخبرة المشتركة وعوامل التشويش في الاتصال البياني وفق رؤية الجاحظ.

إلا أنه يلزمنا حتماً التنبيه حين نتحدث عن الجاحظ ونشيد بأرائه في هذا المجال، أننا لا نزعم أن الجاحظ أسس نظرية متكاملة، شملت عناصر الاتصال البياني كلها، أو أنه كان ينظر للعملية الاتصالية نظرة مستوعبة لكل أبعادها ومتغيراتها!! ولا ندعي للجاحظ مثل ذلك، ولا نحاكمه إلى مثل هذه النظريات الحديثة. حيث إن نظرية الاتصال مبنية على أن تُلاحظ العناصر الاتصالية جملةً في أي حدث اتصالي، وتُشخص مجتمعةً دون تجزئ، وفصلنا هنا بين عناصر الاتصال إنما هو فصل إجرائي تقتضيه أغراض الدراسة. لكن الذي يشدُّ القارئ ويثير إعجابه، بعض الآراء الناضجة التي سبق إليها، والنظرة العميقة التي وعاهها، من حيث عنايته بعناصر الاتصال من متكلم ورسالة بينهما، ثم التغذية الراجعة والخبرة المشتركة وعوامل تشويش قد تعترى أي رسالة كما سيتبين. وسنراه يتحدث مرة عن الكلام وحسنه ورديقته، ومرة أخرى يتوجه إلى المتحدث وما ينبغي له عندما يتحدث، وثالثة إلى المستمع والعناية به ودوره في عملية التواصل.. وهكذا، وحينما نجمع أشتات نظراته واهتماماته؛ بالرسالة مرة، والمرسل أخرى، والمتلقي ثالثة، يمكننا من خلالها تلمس رؤية متكاملة له في هذا المجال.

المطلب الثالث: عناصر الموقف الاتصالي البياني عند الجاحظ:

ركز الجاحظ على عناصر الاتصال الثلاثة؛ الرسالة والمرسل والمستقبل "والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والأفهام" [الجاحظ، 2001م، 76/1] "والبيان اسمٌ جامعٌ لكلِّ شيءٍ كَشَفَ لك قِنَاعَ المعنى" [الجاحظ، 2001م، 76/1] وهو تصور واع بأبعاد العملية الاتصالية، من حيث إنَّ قيمة الكلام الفني تبرز من خلال حضور المتلقي في ذهن المبدع ووعيه واهتمامه، وهو معيار النجاح للمتكلم. وهي تفصيلاً على النحو الآتي:

أولاً: الرسالة Message:

ويقصد بها المحتوى الذي يود المرسل نقله إلى الآخرين مستهدفاً من ورائه التأثير فيهم. ولكل رسالة مضمون، وهو الأفكار التي يراد التعبير عنها، وشكل يتمثل بالرموز اللغوية التي يتم التعبير بها. وتعدُّ الرسالة عنصراً مهماً وفاعلاً في الموقف البياني، فهي بضاعة المتحدث/المرسل، والتي من دونها ينتفي الهدف الرئيسي للاتصال. وعندما نجمع أشتات ما قاله الجاحظ في الرسالة يمكننا تصنيفها في ثلاثة محاور؛ الأول: مرحلة تكوين النص. الثاني: الرسالة شكلاً ومضموناً. الثالث: ملائمة الرسالة للسياق. وإليك تفصيلاً:

أ) الرسالة في مرحلة التكوين:

لا بد لمن يرغب في الكلام أن يتأثر بمؤثر داخلي أو خارجي يدفعه للكلام. وبذلك فالبنية النصية بنية معقدة ذات أبعاد أفقية وتدرج هرمي؛ تشمل إنتاج النصوص وبناءها وتأثيرها⁽¹⁾. في مرحلة تكوين النص، وبمكنا وصفها بمرحلة الإنتاج والخلق، يصادفنا فيها نص للجاحظ نجده قد ألمَّ فيه بمرتكزات هامة في العملية الاتصالية، واقترب فيها من بعض النظريات الحديثة، وشخص العملية الكلامية تشخيصاً يشبه الأفكار التي نجدها عند المدرسة التوليدية التحويلية. حيث يقول:

(1) ينظر: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة: د. نايف خرما (ص: 78). و علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات: د. سعيد بحيري. ص: 125.

الشركة العالمية المصرية للنشر.

"المعاني القائمة في صدور الناس المتصوّرة في أذهانهم والمتخلّجة في نفوسهم، والمتّصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكّرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره، وعلى مالا يبلغه من حاجات نفسه إلاّ بغيره، وإنما يُحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وإحبارهم عنها، واستعمالهم إيّاها. وهذه الخصال هي التي تقرّبها من الفهم، وتُخلّيها للعقل، وتجعل الخفيّ منها ظاهراً، والغائب شاهداً، والبعيد قريباً، وهي التي تلخّص المتبسّس، وتحلّ المنعقد، وتجعل المهمل مقيداً، والمقيد مطلقاً، والمجهول معروفاً، والوحشيّ مألوفاً، والعقل موسوماً، والموسوم معلوماً" [الجاحظ، 2001م، 75/1].

(ب) الرسالة مضموناً وشكلاً:

اللغة في ظاهرها شكل أو قالب، وهذا الشكل يحوي معاني، وثمة نظرة متوازنة إلى عنصري اللفظ والمعنى نلمحها عند الجاحظ. فاهتمام الجاحظ الأول بأي رسالة هو الفهم والإفهام أو البيان والتبيين، إذ بهما تتحقق الغاية من التواصل بين الأفراد لقضاء الحاجات وبلوغ المآرب، وهو مع ذلك لم يتخلّ عن نظريته البلاغية والجمالية في حسن السبك وجمال العبارة ونحو ذلك مما سيتبين. لكن الركيزة الأساسية الأولى - كما مر - هي "الفهم والإفهام"⁽¹⁾.

والنصوص التي تثبت أن وظيفة الإيضاح والإفهام هي المسيطرة على تفكير الجاحظ البياني كثيرة، منها قوله:

"مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسماع، إنّما هو الفهم والإفهام" [الجاحظ، 2001م، 76/1]. ويقول: "مدار الأمر على البيان والتبيين، وعلى الإفهام والتّفهم" [الجاحظ، 2001م، 11/1]. ويقول: "وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى، وكلّما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبيض وأنور، كان أنفع وأجوع" [البيان 75/1]. وفي موضع آخر: "والدلالة الظاهرة على المعنى الخفيّ هو البيان الذي سمعت الله عزّ وجلّ بمدحه، ويدعو إليه ويحثّ عليه، بذلك نطق الثرّان، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم" [الجاحظ، 2001م، 75/1]. ويقول: "وأحسن الكلام ما كان قليلاً يُعنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه" [الجاحظ، 2001م، 83/1]

لأن العناية بوضوح المعنى ونصاعة الدلالة، والبعد عن الإلغاز والتعمية، و الغموض والإبهام، يحقق الغاية من وصول المعنى كما أراده قائله، ويوفّر بين طرفي الخطاب تناسباً يسمح بالتواصل، فيكون المتكلم قادراً على الإبلاغ والسماع مهياً إلى تمثل ما يقال له.

أما اهتمامه بالشكل أو القالب الفني للرسالة، فيتمثل في عنايته بلطف العبارة، ودقة المدخل، وصواب الإشارة، والبعد عن الألفاظ المهجينة، والمعاني الحقيرة، والتناسب بين اللفظ والمعنى ونحو ذلك، مما شاع في كتابه. فمما قاله أبو عثمان:

"أنذركم حسن الألفاظ، وحلاوة مخارج الكلام؛ فإنّ المعنى إذا اكتسى لفظاً حسناً وأعاره البليغ مخرجاً سهلاً، ومنحه المتكلم دلاًّ متعشّقاً، صار في قلبك أخلّى، ولصدرك أملاً. والمعاني إذا كُسيّت الألفاظ الكريمة، وألبست الأوصاف الرفيعة، تحوّلت في العيون عن مقادير صورها، وأزّبت على حقائق أقدارها، بقدر ما زُيّت، وحسب ما زُخرفت، فقد صارت الألفاظ في معاني المعارض وصارت المعاني في معنى الجوّاري" [الجاحظ، 2001م، 254/1]

فها هنا وضع الجاحظ جملة من شروط الرسالة الناجحة، بدءاً من قالب الرسالة (الشفرة المستخدمة) إلى محتواها، وهو في ذلك يتوجه إلى سياق النص، في الملازمة الداخلية بين الألفاظ ومعانيها. ويؤكد على وظيفة اللغة الإبداعية والجمالية.

(1) التفكير البلاغي: حمادي صمود (ص:162).

ويؤكد على مبدأ مناسبة الشكل للمضمون في موضع آخر حيث يقول:

"ومتى شاكل -أبقاك الله- ذلك اللفظُ معناه؛ وأعرب عن فحواه، وكان لتلك الحال وفقاً، ولذلك القدر لفقاً، وخرج من سماجة الاستكراه، وسلم من فساد التكلف، كان قميناً بحسن الموقع، وبانتفاع المستمع، وأجدر أن يمنع جائيته من تناول الطاعنين، وبحمي عرضه من اعتراض العائنين، وألاً تزال القلوبُ به معمورة، والصدورُ مأهولة، ومتى كان اللفظ أيضاً كريماً في نفسه، متخيراً من جنسه، وكان سليماً من الفضول، بريئاً من التعقيد، حُبب إلى النفوس، واتصل بالأذهان، والتحم بالعقول، وهشتت إليه الأسماع، وارتاحت له القلوب" [البيان: 7/2-8]

فأي معنى يجب أن يكون بإزائه لفظ يختص به، ويكون ذلك اللفظ مناسباً له. وهو تنبيه على الوظيفة الشعرية للغة التي تستهدف الرسالة بوصفها رسالة. ثم يقول:

"ولم أجد في خطب السلف الطيب والأعراب الأفحاح، ألفاظاً مسخوطة، ولا معاني مدخولة، ولا طبعاً رديئاً، ولا قولاً مستكراً، وأكثر ما نجد ذلك في خطب المؤلدين، وفي خطب البلديين المتكلمين" [البيان: 8/2].

(ج) الرسالة على المستوى الخارجي:

عناية الجاحظ بالرسالة على الصعيد الخارجي مما لا نحتاج معه إلى كبير جهد في تتبع أقواله ورواياته، وليس جديداً أن نعرف المبدأ الذي قامت عليه البلاغة العربية في موافقة الكلام لمقتضى الحال، هو العنصر المعتمد لدى الجاحظ في أي رسالة. فشرط المعنى أو (المحتوى) عنده أن يكون ملائماً لمتلقيه، مناسباً للحال التي تلقه، حتى يصل المعنى الذي أراده صاحبه بأيسر الطرق، وأدق المقاصد. ويكون له الأثر الحمود. يقول:

"والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال" [الجاحظ، 2001م، 1/136]

فحين يكون الخطاب للعامة والجمهور يجب أن تسهل الألفاظ وتيسر المعاني، وعلى العكس حين يكون الخطاب للخاصة فيقتضي أسلوباً بليغاً مناسباً لمستواهم، يؤكد بقوله أيضاً:

"وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً، وساقطاً سوقياً، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً؛ إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً؛ فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي" [الجاحظ، 2001م، 1/144]

فيراعى بين الألفاظ ونوعية المستمعين ومستواهم؛ فللبدوي ألفاظ غريبة، كما لرجل الشارع والسوق ألفاظ تناسب مستواه، يوضح ذلك بصورة أكثر جلاء:

"فإن كان الخطيب متكلماً تجنّب ألفاظ المتكلمين، كما أنه إن عبّر عن شيء من صناعة الكلام واصفاً أو مجيباً أو سائلاً، كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين؛ إذ كانوا لتلك العبارات أفهم، وإلى تلك الألفاظ أميل، وإليها أحنّ وبها أشغف" [الجاحظ، 2001م، 1/139]

ثانياً: المرسل (المُتحدّث) Communicator:

وهو مصدر الرسالة البيانية، وأهم عنصر ترتكز عليه حركية العملية البيانية، إنّه الطرف الأول في عملية الاتصال البياني، وهو منشئ النص ومخرجه للوجود، والذي يحمل النص رؤيته وأفكاره للتأثير في الآخرين. وفي إبراز دور المرسل وأهميته يقول الجاحظ:

"والمفهم لك والمفهم عنك شريكان في الفضل، إلا أنّ المفهم أفضل من المتفهم وكذلك المعلم والمتعلم، هكذا ظاهر هذه القضية، وجمهور هذه الحكومة، إلا في الخاص الذي لا يُذكر، والقليل الذي لا يُشهر" [الجاحظ، 2001م، 1/12]

وهذا إدراك بعيد منه بالدور الذي يقوم به كل منهما. وهو في ذلك أكثر إنصافاً من "بارت" الذي بالغ حين ساوى بين المبدع والمتلقي، ووحد بينهما حتى قال بوجود الكتابة القارئة " فالنص يتكلم كما يريد القارئ، بل إن قيمة النص تتمثل فيما تتيحه للقارئ من محاولة كتابته مرة أخرى" (1)

يقول الجاحظ في موضع آخر: "وقال بعض الأوتال: إنما الناس أحاديث، فإن استطعت أن تكون أحسنهم حديثاً فافعل" [البيان 75/2] حيث يكتسب النص قوته وبلاغته من شخصية قائله. وبه - أعني المرسل - تتعلق وظيفة اللغة التعبيرية. وكل ما يقال من البلاغة، والبيان، والمنطق، وفن الإلقاء، والقدرة على الإقناع هي من أدوات المرسل الضرورية، والعناصر اللازمة له في إيصال رسالته بأحسن صورة.

وسنبرز أهمية المرسل لدى الجاحظ من خلال مرتكزين أساسيين لدى أي متكلم، بدت لنا واضحة في مواضع متناثرة من كلامه، ووجدناها عند من عونا بالتنظير لمبادئ الاتصال (2)، وهما:

(أ) المهارات البيانية والخلفية المعرفية:

حيث في كل موقف اتصالي نجد أن تمكن المرسل من المهارات الاتصالية المناسبة، إضافة إلى خلفيته حول موضوع رسالته، غالباً ما تترك أثراً فاعلاً في الكفاءة النوعية للرسالة الاتصالية. فالبلاغة وفن الإلقاء والقدرة على الإقناع من الصفات التي يذكرها كل من عني بالمهارات الاتصالية وشرح نظرية الاتصال (3). وفي ذلك قال الجاحظ:

"البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة وإلى ترتيب ورياضة وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة وإلى سهولة المخرج وجملة المنطق وتكميل الحروف وإقامة الوزن وأن حاجة المنطق إلى الخلاوة، كحاجته إلى الجزالة والفضامة، وأن ذلك من أكثر ما تُستعمل به القلوب، وثُني به الأعناق" [الجاحظ، 2001م، 14/1].

فليس الأمر على مجرد الإفهام بأي صورة، وإنما بما يستلزمها من مهارات الاتصال وفنون القول، ولذلك نقل الجاحظ كلام العتابي: "حدثني صديق لي قال: قلت للعتابي: ما البلاغة؟ قال: كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبسة ولا استعانة فهو بليغ، فإن أردت اللسان الذي يُروق الألسنة، ويفوق كل خطيب، فإظهار ما عَمُض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق، قال: فقلت له: قد عرفتُ إعادة والحُبسة، فما الاستعانة؟ قال: أما تراه إذا تحدت قال عند مقاطع كلامه: يا هَناه، يا هذا، يا هيه، واسمع مني واسمع إليّ، وافهم عني، أولست تفهم؟ أولست تعقل؟ فهذا كله وما أشبهه عني وفساد..." [الجاحظ، 2001م، 113/1]

فالإعادة والحُبسة والاستعانة من مظاهر ضعف المهارات الاتصالية لدى المتحدث. وهي من قبيل أدوات التشويش التي قد تكون عائقاً أمام فهم الرسالة، أو يكون فيها نوع من الإزعاج لدى متلقي الرسالة، والإزعاج ربما يكون ذهنياً أو نفسياً. مع كون وجودها في اللسان قد يوصل المعنى المراد، لكن الأمر كما قال الجاحظ:

(1) ينظر: البلاغة والأسلوبية عند السكاكي (رسالة دكتوراه): د/ محمد صلاح زكي أبو حميدة. جامعة الأزهر بغزة (كتاب إلكتروني) بتصرف.. 239.

(2) ينظر: مدخل إلى علم الاتصال: د. نبيل عارف الجردى. (ص: 45). و علم الاتصال المعاصر: الطويرقي، (ص: 135). ومفهوم اللغة ووظائفها: رشدي أحمد طعيمة؛ محمود كامل الناقه، (ص: 16)

(3) ينظر: مدخل إلى علم الاتصال: د. نبيل عارف الجردى. (ص: 45).

"فمن زعم أنّ البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل، جعل الفصاحة واللكنة، والخطأ والصواب، والإغلاق والإبانة، والملحون والمغرب، كله سواءً، وكله بياناً... فنحن قد نفهم بجمحة الفرس كثيراً من حاجاته، ونفهم بضغاء السنور كثيراً من إراداته، وكذلك الكلب، والحمار، والصبي الرضيع... وإنما عنى العتابي إفهامك العرب حاجتك على بحاري كلام العرب الفصحاء" [الجاحظ، 2001م، 1:162]

وهو بذلك يشير إلى ضرورة الكفاية اللغوية التي تعني إنتاج منطوقات صحيحة موافقة لقواعد اللغة، والالتزام بالمهارات الاتصالية. وأهمية هذه المهارات هي التي تُفسّر سبب تجنب واصل بن عطاء البراء:

"ولما علم واصل بن عطاء أنه ألثغ فاحش اللثغ وأنّ مخرج ذلك منه شنيع وأنه إذ كان داعية مقالةٍ ورئيسٍ نحلةٍ وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل وأنه لا بُدَّ له من مقارعة الأبطال ومن الخطب الطوال وأنّ البيان يحتاج إلى تمييزٍ وسياسة...". [البيان 14/1].

فالمرسل عند ضعف قدرته التعبيرية أو الأسلوبية أو الخطابية أو اللغوية أو الأدائية تضعف عملية التأثير ونقل الأفكار، وربما تُشغل المتلقي بالخطأ أو العيب الأدائي عن استيعاب مضمون الرسالة، فتختل عملية توصيل الرسالة، وتتأثر وظيفية المتكلم التعبيرية. وعلى الرغم من علو كعب واصل بن عطاء في البلاغة وبراعته في الإلقاء إلا أن عيبه الأدائي كان يمثل عائقاً في توصيل الرسالة، مما جعله يتحامل على نفسه في إخفاء ذلك العيب لإخراج رسالته بصورة لا يكون للخصوم -الذين ربما يتصيدون عليه ويتبعون هفواته ومثالبه- فيها مدخل عليه.

(ب) اتجاهات المتحدث نحو ذاته وموضوعه والجمهور:

تؤدي اتجاهات المتحدث الخاصة بنفسيته وبموضوع المناسبة وبجمهوره المتلقي دوراً فاعلاً في التأثير فيما يمكن التعبير عنه وكيفية التعبير عنه. وإن نفسية المتحدث والصورة الذهنية التي يحملها لذاته تُعد ذات أهمية بالغة في الموقف أمام المتلقي أو الجمهور. إذ الصورة الذهنية لشخصيتك تؤثر في سلوكك العام في الموقف الاتصالي، وفي الوقت نفسه يجب على المرسل مراعاة المتلقي أو الجمهور وقدراتهم من ذكاء واحتياجات وأخذهم في عين الاعتبار.

و لتأمل هذا النص للجاحظ في هذا الموضوع، حيث يقول:

"أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابطاً الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيّد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة، ويكون في ثؤاه فضلاً التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا يُنقح الألفاظ كل التنقيح، ولا يُصقّيها كل التصفية، ولا يهدّجها غاية التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيماً، أو فيلسوفاً عليمًا، ومن قد تعود حذف فضول الكلام، وإسقاط مشتركات الألفاظ، وقد نظّر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة، لا على جهة الاعتراض والتصّحح، وعلى وجه الاستطراف والتطرّف، قال: ومن علم حقّ المعنى أن يكون الاسم له طيقاً، وتلك الحال له وُقفاً، ويكون الاسم له لا فاضلاً ولا مفضولاً، ولا مقصراً، ولا مشتركاً، ولا مضمناً، ويكون مع ذلك ذاكرةً لما عمّد عليه أوّل كلامه، ويكون تصفّحه لمصادره، في وزن تصفّحه لموارده، ويكون لفظه مُونقاً، وهؤل تلك المقامات معاوداً، ومدائ الأمر على إفهام كلّ قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم، وأن ثواتية آلائه، وتتصرّف معه أدائه، ويكون في التهمة لنفسه معتدلاً، وفي حسن الظنّ بها مقتصدًا؛ فإنه إن تجاوز مقدار الحقّ في التهمة لنفسه ظلّمها، فأودعها ذلّة المظلومين، وإن تجاوز الحقّ في مقدار حُسن الظنّ بها، آمنها فأودعها تهاؤنّ الأمنين، ولكل ذلك مقدار من الشغل، ولكل شغلٍ مقدار من الوهن، ولكل وهنٍ مقدار من الجهل" [الجاحظ، 2001م، 1:92-93]

وهذا النص يمكننا أن نخرج منه بجملة حقائق سجّلها الجاحظ، من حيث إن اتجاهات المتحدث الخاصة بنفسيته وبموضوع المناسبة وبجمهوره المتلقي تؤدي دوراً فاعلاً في التأثير فيما يمكن التعبير عنه وكيفية التعبير عنه.

الأول: اتجاه المتحدث نحو ذاته: فنفسية المتحدث والصورة الذهنية التي يحملها لذاته تُعد ذات أهمية بالغة في الموقف أمام المتلقي أو الجمهور، إذ الصورة الذهنية لشخصيتك تؤثر في سلوكك العام في الموقف الاتصالي لأن "أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابطاً للجأش، ساكن الجوارح، قليل اللّحظ، متخبر اللّفظ" [البيان: 1/92].

ويجب أن يكون في نظره لذاته متوازناً لئلا يظلم نفسه أو تظلمه نفسه. "ويكون في التّهمة لنفسه معتدلاً، وفي حسن الظنّ بما مقتصدًا؛ فإنه إن تجاوزَ مقدارَ الحقِّ في التّهمة لنفسه ظلّمها، فأودّعها ذلّة المظلومين، وإن تجاوزَ الحقَّ في مقدارِ حُسنِ الظنِّ بها، آمنها فأودّعها تهاؤنَّ الآمنين، ولكل ذلك مقدارٌ من الشُّغل، ولكل شغلٍ مقدارٌ من الوهن، ولكل وهنٍ مقدارٌ من الجهل". [البيان: 1/93] فلا مبالغة ولا حيف في تقويم الشخص لقدراته البلاغية ومواهبه الإلقائية.

الثاني: اتجاه المتحدث نحو جمهوره، والتي تتأثر غالباً بطبيعة العلاقات ونوعيتها وكيفية تفاعلنا مع الآخرين، فالمتحدث في جمهور بسيط ومتواضع يلجأ إلى توظيف عبارات لغوية مبسطة ويحاول عرض أفكاره عرضاً واضحاً ومتناسباً مع أذهان جمهوره. "فلا يكلم سيّد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السُّوق، ويكون في قواه فضلُ التصرف في كلّ طبقة.. ومدارُ الأمر على إفهام كلِّ قومٍ بمقدار طاقهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم" [البيان: 1/92-93]. لأن المتكلم -وفق رؤية الجاحظ- ينبغي عليه "أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكلّ طبقةٍ من ذلك كلاماً" [الجاحظ، 2001م، 1/138]

فارتباط النص بمبدهه تقتضي ضرورة رعاية المتلقي، الذي يعد ركيزة أساسية في عملية التواصل بل نجاح المتكلم يقاس بأثره لدى المتلقي، وخصوصيات عنصر المتكلم هو حديث عن المخاطب، وهي جميعاً خاضعة للإطار الاجتماعي الذي يلف الموقف الكلامي.

ثالثاً: المستقبل (المتلقي) *The receiver*:

ويقصد به الجهة التي تنتقل إليها الرسالة وقد تكون فرداً أو مجموعة أفراد وهي التي تتولى فك رموز الرسالة وتفسيرها متخذة بعد ذلك الموقف المناسب إزاءها. وأيّما رسالة لا تضع المستمع (المستقبل) رهن عنايتها وموضع اهتمامها، فهي رسالة فاقدة لأهم مقومات الاتصال الفعّال والتأثير النافذ. ذلك أن الرسالة تختلف باختلاف المستقبل، ومثلما لدى المتحدث أهداف يرغب تحقيقها، كذلك الحال عند المتلقين. لأن "السامع شريك القائل" كما قال الجاحظ.

إن القارئ للبيان والتبيين ستصادفه مواضع كثيرة متكررة توجّه فيها الجاحظ إلى المستمع، في وجوب مراعاته، والعناية بجاحته، والسعي لإرضائه والتأثير فيه. والوظيفة الإفهامية التي تتعلق به، مستندا إلى المبدء الذي قرره في أن: "المفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل" [البيان: 1/11].

لأن المبدء إذا كان يمثل محور الرسالة عند الإنتاج، فالمتلقي يمثل محور الرسالة عند التحليل والكشف. و المقام الاجتماعي -وفق رؤية الجاحظ- لا يضمُّ متكلماً وحده، ولا مستمعاً وحده، بل هناك سياق تكاملي، يمثّل المتكلم ركناً، والمستمع ركناً آخر، والحضور ركناً ثالثاً، والظروف المحيطة اجتماعية وسياسية واقتصادية وغيرها ركناً إضافياً وهكذا. وتأمل قول الجاحظ:

"والبيان اسمٌ جامعٌ لكلِّ شيءٍ كشفَ لك قناعَ المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتّى يُفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محموله كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أيّ جنسٍ كان الدليل؛ لأنّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنّما

هو الفهم والإفهام؛ فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع [الجاحظ، 2001م،: 76/1]

وهو في ذلك يتفق كثيراً مع نظرية التلقي تركز على جانب المخاطب في تحليلها للنص، والكشف عن مدى تأثيره وتأثيره فيه. ومما لا شك فيه أن المرسل بقدر ما يمتلك من الحرية في انتقاء بدائله اللغوية، يكون مقيداً بحاجة المتلقي ومستواه الثقافي وظروفه النفسية والاجتماعية

فالمرسل -وفق رؤية الجاحظ- غير حر في انتقاء مفرداته، وصياغة أساليبه إلا بما يتفق وحالة المتلقي، وأصبح المتلقي قوة ضاغطة على المرسل، بدليل قول الجاحظ:

"وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاتياً، وساقطاً سوقيّاً، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً؛ إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً؛ فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي" [الجاحظ، 2001م،: 144/1]

فعملية الحضور والغياب لبعض مفردات الصياغة متاحة لكل مبدع، لكن إثارة جانب على آخر مرهون بإمكاناته التأثيرية في المتلقي، لأن "مدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم" [البيان: 93/1]

وقد مر بنا في الحديث عن المرسل شاهد يؤكد مبدأ العناية بالمتلقي حين وجه الجاحظ المتكلم بأن:

"لا يكلم سيّد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة، ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا يُنقح الألفاظ كل التنقيح، ولا يُصفيها كل التصفية، ولا يهدبها غاية التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيماً، أو فيلسوفاً عليمًا" [البيان: 92/1].

فكما أن هناك متحدثاً عاماً ومتحدثاً خاصاً، فهناك متلق عام ومتلق خاص، ويجب أن تكون الرسالة في شكلها ومضمونها ملائمة لنوعية متلقيها. لذلك تراه يحذر من استخدام عبارات المتكلمين مع غير أهل الصناعة في الشاهد الذي مر بنا في الحديث عن الرسالة:

"فإن كان الخطيب متكلماً تجنّب ألفاظ المتكلمين، كما أنه إن عبّر عن شيء من صناعة الكلام واصفاً أو مجيماً أو سائلاً، كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين؛ إذ كانوا لتلك العبارات أفهم، وإلى تلك الألفاظ أميل، وإليها أحنّ وبها أشغف" [البيان: 139/1]

ويوضح هذا الكلام بأخر أكثر صراحة في كتابه الحيوان، حيث يقول:

"وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة، أو مخاطبة العوام والتجار، أو في مخاطبة أهله وعبد، أو في حديثه إذا تحدّث، أو خبره إذا أخبر، وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب، وألفاظ العوام وهو في صناعة الكلام داخل، ولكل مقام مقال، ولكل صناعة شكل" (1).

إن مراعاة المخاطب ومستواه الثقافي والاجتماعي وفق رؤية الجاحظ عنصر أساس في عملية التواصل، وبه تتحقق المنفعة المرجوة والغرض الذي يسعى له الطرفان.

ومن جانب آخر نلمح إدراك الجاحظ لدور المستمع من خلال الوظيفة الانتباهية المنوطة به، ويُخضع المتكلم لاستيعاب المتلقي حتى يستمر التواصل بشكل سليم. فينقل الجاحظ عن بعض الحكماء قولهم:

(1) الحيوان للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون (ج 3: 114). بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط3، 1968/1388.

"من لم يُنشط لحديثك فارفع عنه مؤونة الاستماع منك، وجملة القول في الترداد، أنه ليس فيه حدٌ ينتهي إليه، ولا يُؤتَى على وُصفه، وإنما ذلك على قدر المستمعين، ومن يحضره من العوامِّ والخواصِّ" [الجاحظ، 2001م،: 105/1]

فالمتلقي هو المرآة التي تنعكس عليها قيمة الرسالة، وأي مرسل لا يمتلك القدرة على إنتاج صورة حسنة تنعكس له من خلال عين متلقيه، فمحكوم على نضبه بعدم الفاعلية، حيث إن "نشاط القائل على قدر فهم المستمع" [البيان 40/2] كما ذكر الجاحظ.

و الاستجابات المستمرة بين المرسل والمتلقي هو ضمان نجاح الحديث والتواصل بين الطرفين، والتغذية الراجعة التي يتلقاها المرسل من محدثيه هي التي ينبغي أن تُسَيِّر العملية الاتصالية. لذلك نقل الجاحظ عن:

"مطرّف بن عبد الله يقول: لا تُطعم طعامك من لا يشتهي، يقول: لا تُقبل بحديثك على من لا يقبل عليه بوجهه، وقال عبد الله بن مسعود: حَدَّث النَّاسَ مَا حَدَّجُوكَ بِأَبْصَارِهِمْ، وَأَذْنُوا لَكَ بِأَسْمَاعِهِمْ، وَلَحَظُوكَ بِأَبْصَارِهِمْ، وَإِذَا رَأَيْتَ مِنْهُمْ فَتْرَةً فَأَمْسِكْ" [الجاحظ، 2001م،: 103/1-104]

والمواضع كثيرة جداً التي تثبت أن المتلقي؛ كان عنصراً مهماً في عملية التواصل عند الجاحظ⁽¹⁾. أختتمها بهذا النص:

"وقال سعيد بن سلمٍ لأُمير المؤمنين المأمون: لو لم أشكر الله إلا على حُسن ما أبلاني في أمير المؤمنين، من قصده إليَّ بحديثه، وإشارته إليَّ بطرفه، لقد كان ذلك من أعظم ما تفرَّضه الشريعة، وتوجُّبه الحزبية، فقال المأمون: لأنَّ أمير المؤمنين يجِدُ عندك من حُسن الإِفهَام إذا حَدَّثت، وحسن التفهيم إذا حَدَّثت، ما لم يجِدُ عند أحدٍ فيمن مضى، ولا يظُنُّ أنه يجده فيمن بقي" [البيان 40/2]

فقد مثَّلت استجابات الأمير لدى المتكلم حافظاً كبيراً لديه، وكوَّنت له دافعية للاستمرار. وبهذا يصبح دور المتلقي ليس دوراً استهلاكياً للنص، وإنما دور إنتاجي، شأنه في ذلك شأن المبدع فهو يؤثر في النص، ويتأثر به، مما يوسع من طاقة النص.

وما مر من إشارات توحى بأن المستقبل أو المتلقي، بوصفه طرفاً أساسياً في عملية الإنتاج، كان واضحاً في ذهن الجاحظ. و يمكننا الحكم مطمئنين أن الجاحظ قد استوعب مرتكزات مهمة في نظرية التلقي، من أن الرسالة اللغوية وفق رؤية الجاحظ تسير في اتجاهين متبادلين من النص إلى المتلقي ومن المتلقي إلى النص. ودور المتلقي ليس دوراً استهلاكياً للنص، وإنما دور إنتاجي أيضاً كما مر. وهذا - كما أمل - قدر صالح للكشف عن عناية الجاحظ بالمستمع⁽²⁾. لأنَّ نقل بعدها إلى مبادئ أساسية في عملية الاتصال كان الجاحظ قد ألم بما إلاماً جيداً، وشخصها تشخيصاً دقيقاً.

الخاتمة:

بعد إجماري الممتع في هذا الكتاب المبارك الممتع أقف على أهم ما توصلت إليه بإيجاز فأقول: أيا كان الرأي حول مسألة خلو كتاب البيان من مقدمة فإن هذا الكتاب على درجة من الأهمية جعلت الباحث لا يستطيع إغفال الحديث حوله؛ وإن خلا من المقدمة التي هي بيت القصيد لأنه كتاب أسس للبلاغة العربية، ويعد مرجعاً يرجع إليه كل المهتمين بالبيان والبلاغة، وتأثر به كل من ألف بعده من ابن قتيبة إلى المبرد إلى ثعلب إلى عبد الله بن المعتز إلى قدامة بن جعفر إلى أبي هلال العسكري إلى ابن سنان الخفاجي، وصولاً إلى العملاق عبد القاهر الجرجاني وقد جمع فيه الكثير من الملاحظات والآراء

(1) ارجع إلى (البيان: 94/4)

(2) ينظر البيان: (76/1)، و(87/1)، و(101/1)، و(105/1)، و(115/2)

المبعثرة في بطون الكتب، وأضاف إليها من عقله وفكره، وحاول أن يضع ضوابط ومفاهيم للكثير من هذه الآراء، وقدم فيه « أول دراسة مستوعبة واعية في البيان العربي وما يرتبط به من ضوابط ومقاييس بلاغته، بل إنه قدم لنا أول مؤلف يحمل اسم البيان كاملة من كتابه كالتدليل على، وحتى إن بعض كتب التراجم تنقل نصوصا صريحا مكانته، وعبقريته في الاهتمام إلى أصول وضوابط علم البلاغة وذلك في كتب مهمة؛ كمعجم الأدباء لياقوت الحموي، وكذلك فطن إلى فضله مؤرخو البلاغة العربية وكتابها كأبي هلال العسكري وابن رشيق في كتابه العمدة وذكر ابن خلدون في مقدمته وذلك في معرض حديثه عن علم الأدب » أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين، هي: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي الفاي البغدادي وما سوى هذه الأربعة فتبع لها ؛ وفروع عنها وكتب المحدثين، وذكر في موضع آخر من حديثه عن البيان حيث قال: « وأمثال ذلك في ذلك كثيرة وسمي عندهم علم البديع وأطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان وهو اسم الصنف الثاني ؛ لأن الأقدمين أول من تكلموا فيه، ثم تلاحت مسائل الفن واحدة

بعد أخرى، وكتب فيها جعفر بن يحيى، والجاحظ وقدامة وأمثالهم إملاءات غير وافية ثم إلى أن محص السكاكي زيدته ورتب أبوابه وهذب مسأله لم تزل مسائل هذا الفن تكمل شيئا فشيئا ولهذا كان لا بد من التعرض لهذا الكتاب والبحث عن مقدمة له والذي تبين لي أنه

قد أهملها لا سيما في الجزء الأول وصدر بها الجزء الثاني ولعل ذلك راجع إلى أسلوبه، الجاحظ في تأليفه الخاص في التأليف ؛ الذي يختلف عن أي مؤلف آخر فقد دأب مستقيما أن يرسل نفسه على سجيته فهو لا يتقيد بنظام محكم يترسمه ولا يلتزم نمجا يحذوه؛ ولذا تراه يبدأ الكلام قضية من القضايا ثم يدعها ليدخل في قضية أخرى، ثم منهجية الجاحظ في كتابه “البيان والتبيين” وإشكالية العلاقة بين النقد والبلاغة يعود إلى ما أسلف من قبل وذلك لم يكن ديدنه هو فقط، بل كان ديدن علماء عصره في زمانه كما أنه ربما يكون علو سنه وجدة التأليف في تلك الأبحاث التي طرقها سببا لها في الباب الأول بدراسة هذا السبيل الذي سلكه في تناول موضوعات كتابه ؛ التي صد ميدانية للبيان في الحياة العامة، ثم عرض للعي في مقابل الفصاحة واللكنة في مقابل الإجابة والفصحاء المطبوعين مقابل الفصحاء المتكلمين لفظ العامة مقابل الخاصة، ونطق العرب مقابل نطق الموالي، وأنواع الحبسة مقابل الذين يقرعون بأطراف ألسنتهم أطراف أنفهم وغيرها من موضوعاته وعلى رأسها عرضه لقضية اللفظ والمعنى كونهما قضايا النقد الأدبي في زمانه ؛ والذي عد أول من وضع رأي صريح فيها بتقديم اللفظ على المعنى باعتبار المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العربي والأعجمي، والمدار على اختيار الألفاظ، وكذلك حديثه عن السرقات كأحد أهم موضوعات النقد. وغير ذلك مما تعرض له من قضايا في متن كتابه ولم يشر إليها في مقدمته كما فعل ابن سلام في طبقاته أو ابن قتيبة في الشعر والشعراء، أو صاحب الوساطة، أو الموازنة ونحوهم.

وكل هذا راجع إلى تفرد في تأليفه وبسبب فكره الموسوعي الذي فرض عليه هذا غير ملتزم النوع من التأليف الذي ربما يجيز لنا القول: إنه جعل منه إلى حد ما كتابا بمنهج معين على الرغم من تميزه وغزارة علمه وعلى الرغم من كونه صاحب زعامة وإمامة في التأسيس للبيان العربي. فقد استطاع وضع الكثير من مصطلحات هذا العلم لها، وجمع شتات المبعثر في بطون كتب الأدب، وقدم لنا تصورات الأمم ووضع ضوابطا المختلفة عن البلاغة والبيان، وجمع كل هذا في كتابه البيان والتبيين، فكان بذلك قد وفر الاستقلال لهذا العلم وأرسى قواعده وثبت أصوله وأقام بنيانه. ماتزال لها جذورها في أصول اللغة العربية على اختلاف تخصصاتها.

مصادر الدراسة:

- 1) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، (ت 808هـ)، دار القلم، الطبعة الخامسة، بيروت، 1984م.
- 2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المعروف ب(تفسير ابن عطية)، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الغرناطي الأندلسي، (ت 541هـ)، تحقيق: عبد الله ابن إبراهيم الأنصاري، والسيد عبد العال السيد إبراهيم، مؤسسة دار العلوم، الطبعة الأولى، الدوحة، 1404هـ. 1984م.
- 3) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، لأبي محمد عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة، (ت 276)، تحقيق: أحمد صقر، المكتبة العلمية، الطبعة الثالثة، المدينة المنورة، 1981م.
- 4) ابن قيم الجوزية، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي المعروف ب(ابن قيم الجوزية)، (ت 751هـ)، نشر محمد أمين الخانجي وشركاه، مصر والأستانة، 1927م.
- 5) أبو حميدة، البلاغة والأسلوبية عند السكاكي (رسالة دكتوراه): محمد صلاح أبو حميدة. جامعة الأزهر بغزة (كتاب إلكتروني).
- 6) الأندروني طبقات المفسرين، لأحمد بن محمد الأندروني، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الأولى، المدينة المنورة، 1997م.
- 7) الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الثناء شهاب الدين السيد محمود بن عبد الله الألوسي البغدادي، (ت 1270هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ.
- 8) الأمدي، الإحكام في أصول الأحكام. لأبي الحسن علي بن محمد الأمدي، (ت 631 هـ)، تحقيق: د. سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، بيروت، 1404هـ.
- 9) بحوث في الثقافة الإسلامية. تأليف عدد من أساتذة جامعة قطر.
- 10) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن لعبد الواحد بن عبد الكريم الزمלקاني، (ت 651 هـ)، تحقيق: الدكتور أحمد مطلوب، والدكتورة خديجة الحديثي، بغداد، 1394 هـ. 1974م.
- 11) بلمليح، إدريس (1984)، الرؤية البيانية عند الجاحظ، ط1، الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع.
- 12) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف ب(تفسير البيضاوي)، لأبي سعيد ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي الشافعي، (ت 685هـ)، دار صادر، بيروت بلا تاريخ.
- 13) البيطار، فكرة إعجاز القرآن، لنعيم الحمصي، تقدم الدكتور محمد بحجة البيطار، مطبعة الترقى، دمشق، 1374هـ 1955م
- 14) التفتازاني، مختصر المعاني، لسعد الدين التفتازاني (ت 793 هـ)، مؤسسة دار الفكر، قم إيران، بلا تاريخ.
- 15) الجاحظ، الحيوان للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون (ج 3: 114). بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط3، 1968/1388.
- 16) الجرجاني: التّعريفات. لأبي الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني المعروف بالسيد الشريف. (ت 816هـ). تحقيق: إبراهيم الأبياري. الطبعة الأولى. دار الكتاب العربي. بيروت. 1405هـ.

- 17) الجرجاني، أسرار البلاغة، للإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، (ت 471 هـ)، تحقيق: د. ريتز، استانبول، مطبعة وزارة المعارف، 1954م.
- 18) الجرجاني، دلائل الإعجاز، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، (ت 471 هـ)، تحقيق: د. محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1995م: 62.
- 19) جمال القراء وكمال الإقراء، لعلي بن محمد علم الدين السخاوي، (ت 643 هـ) تحقيق: علي حسين البواب، مكتبة التراث، مكة المكرمة، 1408 هـ. 1987م: وقد كرس كتاباً أسماه الإفصاح لموجز في إيضاح المعجز تناول فيه إعجاز القرآن.
- 20) الخطابي، البيان في إعجاز القرآن؛ لأبي سليمان محمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي، (388 هـ)، تحقيق: د. عبد العليم، القاهرة، 1372 هـ. 1953م: 21.
- 21) الخفاجي، سر الفصاحة، لأبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي، (ت 466 هـ)، شرح وتصحيح: عبد المتعال الصعيدي، دار الكتب، القاهرة، 1969م.
- 22) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرازي، حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، لشهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، (ت 1069 هـ)، مطبعة بولاق، مصر 1283 هـ.
- 23) الخلوئي، حاشية العلامة أحمد بن محمد الصاوي المالكي الخلوئي، (ت 1241 هـ) على شرح الخريدة البهية، لأبي البركات أحمد بن محمد بن أحمد الدردير العدوي المالكي، (ت 1201 هـ)، مطبعة الاستقامة، القاهرة، بلا تاريخ.
- 24) د. بكري شيخ أمين - البلاغة العربية في ثوبها الجديد - الطبعة الرابعة - دار العلم للملايين - بيروت - 1995.
- 25) الدواني، شرح جلال الدين الدواني على العقائد العضدية. الطبعة الأولى. دار الطباعة العامرة. 1317 هـ:.
- 26) الرازي، مقاتيح العيب المعروف (بالتفسير الكبير)، وب(تفسير الرازي)، لأبي عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الأصل الشافعي المذهب الرازي، (ت 606 هـ)، الطبعة الثالثة، المطبعة البهية المصرية، ميدان الأزهر، مصر، بلا تاريخ.
- 27) الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، لمحمد فخر الدين بن عمر الرازي، (ت 606 هـ)، القاهرة، 1317 هـ.
- 28) الرافي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، لمصطفى صادق الرافي. ضبطه وصححه وحقق أصوله: محمد سعيد العريان. الطبعة الرابعة. مطبعة الاستقامة. 1359 هـ. 1940م.
- 29) الرماني، النكت في إعجاز القرآن، لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني، (ت 384 هـ) (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ.
- 30) الزملاوي، التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن، لعبد الواحد بن عبد الكريم الزملاوي، (ت 651 هـ)، تحقيق: الدكتور أحمد مطلوب، والدكتورة حديجة الحديثي مطبعة العاني، بغداد، 1383 هـ. 1964،
- 31) السكاكي، مفتاح العلوم، لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي، (ت 626 هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، الطبعة الأولى، مصر، 1937م:.
- 32) السندي، حسن (1931)، أدب الجاحظ، القاهرة: المطبعة الرحمانية، ص61، وينظر خفاجي، محمد و شرف، عبد العزيز (1991)، التفسير الإعلامي للأدب، بيروت: دار الجيل.
- 33) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، لأبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي (ت 911 هـ)، بهامشه إعجاز القرآن للباقلاني، الطبعة الثالثة، شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1951م.

- 34) الشوكاني، فُتِحَ القُدَيْرِ الجامع بين في الرواية والدَّرَايَةِ من علم التَّفْسِيرِ، لمُحَمَّدِ بنِ علي بن مُحَمَّدِ الشوكاني، (ت 1250هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر، بَيْرُوت، بلا تاريخ.
- 35) الشيرازي، بصائر ذوي التمييز، لأبي الطاهر مجد الدين مُحَمَّد بن يعقوب الفيروزآبادي الصَّدِيقِ الشيرازي، (ت 817هـ)، تحقيق: مُحَمَّد علي النجار، القاهرة، 1964هـ. 1969م.
- 36) الضرير، المصباح في اختصار المفتاح للسكاكي، لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المراكشي الضرير، (ت 807هـ)،
- 37) الطحان، دراسات حول القرآن الكريم، للدكتور إسماعيل أحمد الطحان، دار القلم، بيروت، 2001م.
- 38) طعيمة، تعلم اللغة اتصاليا بين المناهج والاستراتيجيات: د/رشدي أحمد طعيمة، د/محمود كامل الناقه مفهوم اللغة ووظائفها: رشدي أحمد طعيمة؛ محمود كامل الناقه.
- 39) العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم. لأبي السعد مُحَمَّد بن مُحَمَّد العمادي (ت 982هـ)، دار إحياء التراث العربي، بَيْرُوت، بلا تاريخ.
- 40) العمري، محمد (1999)، البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، الدار البيضاء: مطبعة إفريقيا الشرق.
- 41) الغزالي، إحياء علوم الدين، شركة مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، الطبعة الأولى مصر، 1939م.
- 42) الغزالي، جواهر القرآن، لأبي حامد مُحَمَّد بن مُحَمَّد الغزالي، (ت 505 هـ)، تحقيق: د. مُحَمَّد رشيد رضا القباني، دار إحياء العلوم، الطبعة الأولى، بَيْرُوت، 1985م.
- 43) القاضي عبد الجبار، المُعْنِي فِي أَبْوَابِ العَدْلِ والتَّوْحِيدِ. للقاضي أَبِي الحَسَنِ عَبْدَ الجَبَّارِ الأَسَدِ آبَادِي المَعْتَزِلِي، (ت 415 هـ)، حرر نضه: أمين الخولي، أشرف على إحيائه: طه حسين، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، القاهرة، بلا تاريخ.
- 44) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي أَبِي الفُضَّلِ عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، (ت 544هـ)، مديلاً بالحاشية المسماة: منزل الخفاء عن ألفاظ الشفاء للعلامة أحمد بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد الشمني، (ت 873 هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، بلا تاريخ.
- 45) القرطاجي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لأبي الحسن حازم القرطاجني، (ت 684هـ)، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجه، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م.
- 46) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع على مُختَصَرِ تلخيص المفتاح، لأبي عَبْدَ اللَّهِ جلال الدين بن سعد الدين أَبِي مُحَمَّد بن عَبْدَ الرَّحْمَنِ الحُطَيْبِ القزويني، (ت 739هـ)، الطبعة الرابعة، دار إحياء العلوم، بَيْرُوت، 1998م
- 47) مصطفى رجب، الإعجاز القرآني نظرة تاريخية، للدكتور مصطفى رجب، مجلة المنهل، العدد 491، أكتوبر 1991م.
- 48) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف. لمُحَمَّدِ عَبْدَ الرَّؤُوفِ المناوي. (ت 1031هـ). تحقيق: د. مُحَمَّد رضوان الداية. الطبعة الأولى. دار الفكر المعاصر. دمشق، ودار الفكر للطباعة والنشر. بَيْرُوت. 1410هـ.
- 49) اليمني، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة بن علي العلوي اليمني، (ت 669 هـ)، مطبعة المقتطف، مصر، 1332 هـ. 1914م.